... وكان الصوت يبكي !

قصة بقلم عايدة مطرجي ادريس

عبثا حاولت هذا الصباح ان تعيد النوم الى اجفان طفلها ، فقد كانت الاصوات المنبعثة من الخارج قوية حادة ، حتى خيل اليها ان الحي كله يهب مجلجلا وكأنما عاودته حيويته السابقة . واطلت من نافذتها: كان اهل الحي كلهم في الساحة ، وكانوا يهللون ويكبرون من حناجر تمزقها الحماسة . لقد تركوا لعواطفهم المكبوتة ان تنطلق ولشعاراتهم أن تحيا ؛ ولاملهم الاخضر ان يبرعم من جديد، مع الربيع الضاحك الذي لن يلبث طويلا حتى يطل عليهم .

وركضت الى زوجها ، وهي ماتزال تحمل الصبي الذي ازداد حيوية لشدة الضجة التي تملأ بيتهم ايضا. ودخلت الغرفة الصغيرة ، كان المذياع فيها يلعلع على غير عادة ، وكانت اصوات غريبة تنبعث من على شرفتها في هذا الصباح الباكر ، واخذتها الدهشة حين رأت زوجها في ذلك الوضع .. اصحيح ماتراه ؟ هل يمكن لرصانته ان تنهار ، فاذا به مع هذين الصديقين اللذين يزورانه يشاركون صبية الحي وشبابها في التعبير البدائي عن فرحتهم ؟كانت ايديهم متشابكة واصواتهم ترتفع في اغنية كان اهل الحي كله يرددونها ورقصات اقدامهم تنسجم في ايقاع موحد. انهم يتبادلون النظرات في شبه ذهول ، ويتبادلون القبلات، ويعودون الى الاغنية يطلقون كلماتها في جذل وصراخ ..

واقبلت عليه ، فاذا به يتناول الصبي ويرفعه على يديه وهو مايزال يغني ويدور ويرقص ، وقالت في نفسها : هذا عهد الرجال الذين يرقصون ..

●

ثم دخلت الى غرفتها ، فتبعها الصبي ، ولحقت بهما اخته . قالت الام ، وهي تسأل الصغيرة بتحبب ، سؤالا مضى اكثر من سنة ونصف عليه : متى تلد الماما ؟ ولم تكن تدري ما الذي دفعها الى طرح هذا السؤال ، في هذا الوقت بالذات ، غير انها كانت تشعر بلذة غريبة في استعادة ذلك الجواب الذي لم تنسه يوما. وها هي الصغيرة تجيب باللهجة نفسها التي رددت بها من قبل تلك العبارة : « عندما تشتي الدنيا » .

●

لم تكن هناك ، في ذلك اليوم ، امكانية لهطول المطر، وكانت تشرف على نهاية شهرها التاسع ، ومع ذلك فلم يكن احد من افراد العائلة يستطيع ان يفصل بين ولادة الطفل وبين هطول المطر ، لفرط مارددت الصغيرة تلك الكلمات : « عندما تشتي الدنيا » .

انها لتشعر الان بذلك الاختناق الذي شعرت به ذلك المساء ، بالرغم من ان البرد كان قارسا في هذا الصباح ، لم تكن مدينة بيروت بحاجة الى المطر يوما كما كانت بحاجة اليه في ذلك الاسبوع . وكان الجو الخانق يزيد من احتقان الدم في اجساد اهلها والانقباض في نفوسهم . ولو تسنى لاحد ان يقف على تلك الشرفة من البناية الضخمة التي تطل على تلك البيوت المتواضعة من حي البسطة لاستطاع ان يتمثل صور الانقباض الذي كان اولئك البسطاء يوحون به في عيشهم . لقد هدأ الحي منهم وساده صمت لاتقطعه سوى اصوات الهررة . وغابت منه حلقات الشبان لتحل مكانها لوحات غرف مضاءة يتحلق فيها حول مذياع صغير افراد العائلة الكبيرة ، ولم يكن هناك اية حركة تشير الى ان حديثا ما يجري بينهم . لكأن كل فرد قد كتب على نفسه عقدا صامتا بان لا ينبس، بل ان احدهم لا يكاد ينظر الى الاخر . ان معظم الرؤس ، مطرقة واجمة ، اما الوجوه فمنها مايعكس قلقا وانقباضا مخيفا ، ومنها مايشتعل الغضب فيه . اتراه تعب النهار المضني ، سعيا وراء الرغيف ، وهم الرغيف ، هو الذي يرتسم على وجوههم ، ام تراها فاجعة الامس تتجسد ؟ اتراهم ، اولئك البسطاء، يستطيعون ان يرتفعوا الى مستوى ادراك الكارثة التي المت بذلك الحي ؟ اتراهم يستطيعون ان يعقلوا أي مصير آلوا اليه ؟ أتراهم في اطراقهم ، يتفادون شعور الخجل والهزيمة الذي يعتمل في نفوسهم والذي يولده التقاء نظراتهم ؟

ذلك المساء ، احست ، ان اهل الحي كله فقدوا تلك السعادة العارمة التي كانت تملأ نفوسهم ، كل عام ، في شهر شباط ، عندما كانت تغادر المدينة سياراتهم الكبيرة المحملة بمئات الشباب والشابات ليقاسموا جيرانهم الفرحة الكبرى المشتركة .

وحينما يرجعون يهب الحي كله ــ رجالا ونساء واطفالا ليستقبلوا اولئك العائدين وقد علت الزغردة والاناشيد والصراخ ، وكان الوافدون يطلقون لزامير سياراتهم العنان ، ترافقها اصوات الاناشيد الحماسية. الا ان اصواتهم كثيرا ماتكون مبحوحة ، فيشاركهم الجمع المحتشد الذي كان يتدفق من كل اتجاه ، وتظل اصوات الغناء ، والصياح ، وتظل الجموع والحلقات حتى ساعات متأخرة من الليل . واصوات الطلقات تمزق الاجواء،والاسهم النارية تخترق حجب السماء ، والسنة اللهيب تعكس احمرارها على كل وجه .

وليست بحاجة الان ، وقد عاود الحي فرحه ، ان تتمثل صور السعادة التي كان اهل الحي يحسونها في تلك الايام السابقة. لقد كانت كل ذرة من درات نفسه وارضه ترقص كما ترقص هذا الصباح ، وكان قدرها المكبوت يتفجر كما يتفجر في تلك اللحظات المحمومة . وتمثلتها وهي حامل ، ذلك المساء ، تتأمل من على تلك الشرفة البيوت الصامتة التي يلفها سكون المقابر ، لقد تأمر الليل الذي غاب قمره مع الحر والسكون والشيطان على الحي ، وتربعوا على قلبه ثقلا يخنق كل خفقة فيه ، وكابوسا يربض على صدرها ، هي ، انها لم تحس بثقله كما كانت تحس به ، ذلك المساء ، حتى في اليوم الذي جلست فيه تقبل التعازي بوفاة والدها . كان الطقس حارا كهذا المساء، وكان جو الغرفة الجنائزي ثقيلا كهذا الجو ، وكان الكابوس يلازمها طيلة تلك الايام الطويلة التي قضتها صامتة حزينة، وقد التف رأسها بمنديل ابيض كتلك المعزيات اللواتي كن يتوافدن فيجلسن على الكراسي دون ان يحدثن اية حركة، ثم يخرجن كما دخلن ، صامتات مطرقات . وانها لاتدري اي شعور هو ذلك الذي دفعها الى ان تراقب رؤوس تلك المعزيات لترى ان كانت تتحرك ، لعلها ارادت ان تشغل نفسها وتزيح عنها ذلك الكابوس الرهيب فتقتله بالانشغال عنه بمنظر من لايعانون كابوسا . وكثيرا ماكانت تنجح ..

ولكن ، عبثا حاولت ذلك المساء ان تتخلص منه ،كانت جذوره تتشعب وترسخ حتى يخيل اليك انه قد تجسد على كل وجه من وجوه هذا الحي ، خاصة في العيون التي فقدت بريقها ، وظلت تحتفظ بتلك الدمعة الحرى التي ذرفها رجال اقوياء وهم مجتمعون او منفردون او متجولون. كانوا جميعهم ، في ذلك اليوم المشؤوم يبكون ، وكان ذلك الصوت الاتي اليهم من بعيد حزينا ، متقطعا ، ثم باكيا .

انها تذكر الان تماما كيف كان منظر هؤلاء البشر يمكن الكابوس من نفسها، حتى لم يعد من سبيل الى التفكير بازاحته ، يومها ، لم تكن تستطيع ان تقوم بأي عمل، بالرغم من انها كانت تدرك تماما ان عليها اعداد جميع الترتيبات اللازمة لمجيء الطفل ، كانت مشوشة الفكر،وكانت الصور القاتمة تتلاطم امامها فلا تقوى على التمييز بينها، امرأة مسجاة ، صوت بعيد يبكي .. زوج مكتئب ، وجوه سوداء ، وجوه محتقنة حمراء ، مقصات .. رجل يرتدي لباسا ابيض ، صراخ طفل .. واحست ذات لحظة بروائح عقاقير تسد انفها ، فارتعشت ووضعت يدها على بطنها تريد ان تتحسس واقعها : كانت ماتزال هنا ، جامدة ،ولكن احشاءها لاتهدأ . ان الجنين يجمع نفسه ، فينخفض ، ثم يرتفع ، فينزوي فجأة يمينا وقبل ان يستقر ينقلب الى جهة اخرى وكأنه لاعب سيرك متحمس . كانت تريد ان تبكي ، لعلها تفرج عن نفسها . ولكنها لم تكن تقوى على ذلك . ان الدمعة تستعصي عليها ، ماذا ؟ هل قدر عليها ، في هذا الظرف ، ان تتحمل وحدها الام المخاض من غير ان يهتم احد او ينشغل بما سوف تعانيه ، حتى زوجها ؟ زوجها الذي كانت تعتقد انها تملأ حياته ، فلا ينشغل عنها بشيء ، مهما كان خطرا ، خاصة في تلك الايام العصيبة التي تحس فيها انها كانت تتأرجح بين الحياة والموت .كان شبح الموت لا يفارقها ، وكانت تحس لذلك بألم هائل، أتراها ستبصر طفلها ؟ وطفلتها ، أي مصير ستؤول اليه ؟ انها مضطربة لاجلها ، وتتمنى ان تعيش لتمدها بمزيد من الرعاية ولتغدق عليها مزيدا من الحب والحنان ، واحست انها ما تزال قادرة على العطاء ، وانها لم تعط بعد كل ما في نفسها ! ونادت زوجها ، بلا صوت ، وقالت له انها بحاجة اليه ، وانها تكاد تجن . وانها ستموت من الرعب والاشباح والرؤى ، وان الكابوس يخنق انفاسها ، وانها تخشى على طفلها الذي لم يولد بعد .. غير ان زوجها كان ابعد من ان يسمع نداءها المجروح. انه منذ اسبوع، لا يكاد يبرح تلك الغرفة الصغيرة من البيت ، يلازم مكتبا صغيرا وضع عليه مذياع كان يتلاعب بازراره دونما حاجة كان اصابعه انفصلت عنه ، فغدت آلة اوتوماتيكية تدير بانتظام ابرة المذياع ، وكثيرا ماكانت تتقدم منه في تلك الفترة ، وقد احضرت له طعاما او قهوة ، فلم يكن يرفع اليها نظراته . اتراه يخجل من نفسه ، هو الاخر ، فيتجنب ان يقرأ في عينيها الخيبة التي كانت تجتاحه ؟ لطالما حدثها عن الامل الاخضر الذي سوف يتفتح ، وعن دور الفكر والكلمة في مد ذلك الامل بنسغ الحياة ، كانت تؤمن بما كان يقوله لها ، ورسخ في اعماقها ايمانه بان الكلمة الشريفة امضى من السلاح ، الا ان وجوها كثيرة كانت مزيفة تتكشف لهما فيخيل لهما ان الكلمة احط من ان يؤمنا بها . فقد تعني شيئا وقد لاتعني شيئا ، وقد تساوى معها المجرم والبريء ، القذر والشريف، المثقف والجاهل ، الوطني والخائن . وكانت اصوات كثيرة عرفاها بالامس تسبح بحمد صاحب ذلك الصوت تسبيحا فيه كل حرارة الايمان والاعتقاد ، فاذا بهم اليوم يكيلون له الشتائم . اما كان الاجدر بهم ان يصمتوا بالامس ، حتى يحق لهم اليوم ان يتكلموا ؟ وكانت تحس بمرارته ، ولعله كان يتساءل ، ماعساه يكتب في

مجموعة العالم والعصر

صدر منها حديثا :

لعبد الله حشيمة

من أرض الغد

في افريقيا السوداء

منشورات : **المطبعة الكاثوليكية**

توزيع : **المكتبة الشرقية**

ساحة النجمة ـ بيروت

الغد ، ولمن ؟ وكان جيله يبدو له ، زاحفا ، ضعيفا ، يجر اذيال العار والهزيمة ، متراجعا ليعقد مع القرن الماضي اوثق رباط ، وتضخم الامر في نفسه ، حتى اصبح اليأس لايطاق ، أنى للصدع ان يلتئم بعد ؟ وبدا لها وجهه المحتقن وقد قست ملامحه حتى بدت غريبة عليها . ترى ايه اشباح رهيبة تزوره هو ؟ ليتها تستطيع ان تسأله ماذا يشكو ، ليتها تقوى على ان تحدثه عن كل مافي نفسها . اين شجاعتها ؟ لماذا تشعر بالعجز عن التعبير ؟ ان رأسها مليء بالافكار التي تود ان تقولها ، ونفسها طافحة بالرؤى والصور التي تريد الخلاص منها . ورفعت اليها رأسه ، محاولة ان تحدق بعينيه ، لربما تفاهما ، ولكنه ، كان يتفادى ذلك ، لعله كان يريد تعذيب نفسه ، فلا يكشف حتى لها ، عن آلامه . ولكنها هي ، غمرت رأسها بين يديه، ولم تعد تقوى على الصراع ، كانت تريد ان تتكلم وان تتكلم وان تتكلم .. ولكنها سرعان ماشعرت بعجزها عن ان تنطق بكلمة ، فاكتفت بان ذرفت تلك الدموع التي كانت محبوسه في عينيها . واحست بيديه تحيطان رأسها ، وبشفتيه تقبلان جبينها ، اذ ذاك تشجعت على ان تقول له : « انني بحاجة الى الهواء والى قليل من المسير ، يجب ان يولد الطفل معافى » .

●

كانت الاصوات ، من الخارج ماتزال تلعلع ، اين هي اليوم ، من ذلك الامس ؟ اين هذه الساحة التي تعج من تلك التي كانا يجتازانها ذلك المساء ؟ كان الطريق مقفرا ، بالرغم من ان الساعة لم تكن تتجاوز الثامنة ولم يتحدثا بشيء طوال الطريق ، لماذا يتفاديان الحديث ؟ لماذا لايتكلمان عن الطفل الذي سيولد ؟ انهما منذ اسبوع لم يتحدثا عنه . اتراهما كانا على يقين بانهما لن يتحدثا الا عن الكارثة التي الم يحيهما ؟ لماذا لا تساله ، ايكون صبيا . ايكون بنتا ؟ ان ذلك السؤال لم يفارقها قط منذ ان احست باحشائها تتضخم ، وكانت تعيش هذا القلق الفظيع الذي يساور الحامل مدة تسعة اشهر لاتنقطع فيها لحظة عن التفكير . ان الجنين هنا ، يؤكد وجوده بشكل تبدو الغفلة عنه امرا مستحيلا ، اية مغامرة تعيشها وان كان يبدو للبعض انها مغامرة لادخل لارادة الانسان فيها ، وصحيح ايضا ان مصدر قلقها يعود الى رغبتها في انجاب صبي يملا البيت فرحة ويخلق في نفسها الاعتزاز الانفعالي الشرقي ، فان مصدر فهمها هي بالذات يرجع خاصة الى رغبتها في معرفة هذا المجهول ، هذا الكائن الغريب الذي لم تره ، ان بها رغبة لان تحدثه عنه . وخيل اليها ذات لحظة ان رذاذا من السماء يبلل وجهها ، فاحست بألم في ظهرها اخذ يقوى حتى لم تعد تقوى على المسير ..

وعاودتها صورة المرأة التي كانت ترتدي لباسا ابيض ، وتمسك ادوات معقمة ، ان صوتها مايزال يرتج في اذنيها وهي تردد : يبدو ان الولادة عسيرة ، يجب ان ترتاح قليلا حتى تقوى على الصراع ، ولربما دام ذلك ساعات عديدة .

ثم اضافت المرأة التي ترتدي لباسا ابيض : « لقد مضت الفترة التي كان يجب ان تهدأ فيها اعصابها وتستسلم لشيء من النوم ، أن المسكن لم يؤثر فيها بعد ، وحواسها ماتزال متوترة بشكل غريب ، بل ربما كان وعيها اشد تيقظا » .

غير انها هي ، بدأت تحس بارتخاء في جسمها ، وبصفاء غريب في ذهنها . لقد خيل اليها ، للحظة ، انها تنسلخ عن هذا العالم ، وانها بدأت تتيه ، واحست بلذة غريبة مبعثها هذا الشعور بانها تطير محمولة على بساط طالما غذى مخيلتها الطفلة . وكانت تلتقط اصواتا وكلمات متقطعة دون ان تعيها تماما ، ولكنها لم تكن غريبة عليها ، فكانت تتقبلها وتخزنها في اعماقها .

كان وجهها يحتقن حتى ليكاد دمه ان ينفر . وكانت عروق رقبتها تتصلب وتتضخم حتى تكاد تتقطع ، وكانت يداها تشدان باظافرهما على جوانبها حتى باتت تغرزهما في لحمها ، من دون ان تشعر لذلك باي الم فيهما، كانت آلام فظيعة ، لاتحتمل ، تقطع احشاءها ، وصراع هائل يدور بين عنصري الموت والحياة ، والجنين مصر بعناد والم واندفاع على ان يخرج من الظلام ويلقى النور ، وكانت قواه تضعف هو الاخر ، فيرتد ، ثم يوالي هجماته، حتى اذا شارف على التدفق ، ارتطم ،وعاد القهقرى . وكان في صراعه ذاك يمزق احشاءها ، حتى احست لحظة انها لم تعد تقوى على الحياة .

●

صوت المرأة التي كانت قابعة فوق سريرها يطن الان في اذنيها بشكل ملح ، مميز . انها لم تبرح سريرها قط . وكانت توالي دعاءها وتدعوها الى مزيد من الصبر والايمان. ان الله وحده قادر على امساك ذلك الخيط الدقيق،الدقيق جدا ، فلا تقطعه ارتطامات الجنين المتعلق به ، ولا تنقطع معه حياتها هي وآمالها ورغباتها لتغدو ، اي شيء ؟ كان فظيعا ان تفكر بذلك ، وقبل ان ترى طفلها . واستجمعت قواها كلها ، لتدفع الجنين ، وكانت تحس هذه المرة انها

مجموعة نصوص ودروس

صدر منها حديثا :

شعـراء المعـالفة

لرياض معلوف

*

اشهر المغنين عند العرب

لسمير شيخاني

*

منشورات : **المطبعة الكاثوليكية**

توزيـع : **المكتبة الشرقية**

ساحة النجمة ـ بيروت

لن تقوى بعد على الحركة ، تلك هي نفسها كلها تدفعها ، وفي تلك اللحظة ، جحظت عيناها ، وغرزت اصابعها في الفراش تحاول ان تمزقه ، وتناهى الى سمعها صوت المراة القابعة فوق سريرها يدعوها بالحاح : « اطلبي ماتشائين ، ان الله سيستجيب لك ، لقد طهر المخاض نفسك ، فانت كطفلك ، تولدين من جديد » .. ولمعت امامها ، بشكل غامض مهزوز تلك الصور كلها ، في هذه اللحظات الفظيعة من الالم : زوجها المكتئب ، والصوت الذي يبكي ، والطفلة الحبيبة ، فاذا بصوتها المبحوح يتمتم : « لينصرك الله ! لينصرك الله » . واكتفت بذلك الدعاء الذي بدا لها غريبا هي نفسها ، ثم هدأت ، وارتخت اعصابها وهي تحس بتدحرج لذيذ مسكر ، وصراخ دقيق ناعم . ثم خيل اليها ان صاحب الصوت الذي كان يبكي يبسم لها من بعيد ..

●

وخلال العام كله ، لم يكن صاحب الصوت يبتسم ، كان جرحه عميقا ، وكان مايزال ينزف ، وكانت آلام المخاض تعاودها كلما اتيح لها ان تستمع اليه . ترى ، الن يتمخض الم ذلك الصوت عن فجر مشع كهذا الطفل الذي يحوم حولها ؟

●

وكان الصبي يصرخ ، لقد ضاق بسكون امه واسترسالها في ذكرياتها فهو يريد الخروج من هذه الغرفة الصامتة . انه يريد اباه ، وكأنه آنس الضجة ، والف تلك الحياة الجديدة المرحة التي تطابق مزاجه . وحملته وهي ماتنفك تمطره بالقبلات ، وعادت به الى ابيه وذكرته بما كان يقوله لها كلما قصت عليه حادثة الصوت الذي كان يبسم . فكان يبتسم هو ، وكان احيانا يبتسم باستخفاف وسخرية ، وكان يقول : انك ماتزالين طفلة ، بالرغم من انك اصبحت اما . وكانت تشعر في اعماقها بالالم ، لا ، انها لم تكن مخدوعة ، وليست بالساذجة ، فلماذا لا يصدق؟ لقد رأته ، رأته ذلك الصوت الباسم ، في ساعة الاشراق تلك . وكانت على يقين بان حدسها لن يخطيء . لربما تنكر منطقها لذلك . ولكن من قال ان الحياة منطق وحسب ؟

وحمل الاب طفله : وهو يقول : انا لااصدق شيئا ، لا اصدق ماتسمعه اذناي ، لا اصدق هذا الواقع الحي المجلجل ، فكيف اصدق حدسك ؟ وقبل الصبي ، كان يحس ان هذا الفجر الضاحك الذي انبعث هو اجمل فجر عرفه في حياته .

اما هي ، فقد احست بنفسها خفيفة كما لم تحس بذلك من قبل ، ان شيئا ما كان يثقل على قلبها قد انزاح الان ، وحل مكان ذلك الانقباض الخفي الذي كان ينغص حياتها فرحة عارمة . ها هو الصوت الاتي من بعيد ينطلق قويا صارما كما عرفته من قبل وكما عرفه اهل الحي كله . ولكن شيئا جديدا كانت تلمحه في هذا الصوت فتحس بترجيعه في نفسها كما احس به اهل الحي وكانوا يتحدثون بذلك . لعلها كانت نغمة انصهارهم جميعا في مخاض الالم العظيم الذي عانوه .. واطرقت لحظة وهي في شبه صلاة ودعت من أعماقها ، الا تسمع ذلك الصوت ، بعد اليوم .. يبكي ...

عايدة مطرجي ادريس

الفارس ذو الشارة الخضراء

« تحية اكبار واعتزاز الى رفاق القضية في العراق »

هنيهات ... وتنهد
القلاع السود فاهدأ أيها الرعد
الذي يجتاح أعراقي
والسنة اللهيب الشهل تجري ملء أحداقي
وما في الساح غير البعث
ينفض عن جفون الارض غفوتها الجليديه
ويفجر كل ما اختزنته من حمم جحيميه
ليوم الصحوة الكبرى
ـ اتئد يا رعد ـ
اني عبر زمجرة البراكين
أكاد أحس ، أسمع همسة البشرى
كأصفى ما يكون الهمس ،
تجري في شراييني
وأبصر كل من ضحوا
على هذا التراب البكر كي ينهل
من دمهم له الصبح
وأنظر كل من خضبت
بهم أم الطبول الامس وانطفأت عيونهم
وما انطفأت بها الرؤيا
ولم يبهت بها الحلم
أراهم ينفضون الموت عن أجفانهم
نفضا ، وقد هرعوا
الى الساحات ـ مهلا أيها الرعد
اتئد ـ وصفوفهم سد
كما الطوفان مقتلع ومبتلع
وها شاراتهم خضراء تشرق في
دجى الساح
اتئد يا جرح ـ ها
راياتهم خضراء تخفق في
مدى الميدان لوحات ربيعيه
محملة بفيض الخصب ـ آه الخصب ـ
من عشرين لم أعرف
عطاياه
ـ اتئد يا جرح ـ
من عشرين لم أعرف عطاياه
وكيف يطل شارات ولوحات ربيعيه
ومن عشرين لم أعرف ـ
هنيهات ـ
وتنهد ـ
اتئد يا جرح ـ يا رعد ...

بيروت

فايز صياغ